محطات من التاريخ العسكري لحاضرة بجاية في العصر الإسلامي

من إعداد: أ.د / مصطفى مغزاوي
جامعة الشلف

مقدمـــــة:

الحديث عن الوقائع الحربية والمعالم العسكرية في التاريخ ليس الغرض منه الاعتزاز ببطولات الآباء والأجداد، أو إحياء الضغائن والأحقاد، وإنما الاطلاع على الذهنيات العسكرية والاستعدادات الحربية والسياسات الهجومية والتدابير القتالية والاستحكامات الدفاعية عبر التاريخ، لفهم وإدراك الذهنيات والنفسيات البشرية في حالتي السلم والحرب، وهو ما سنحاول تحصيله في هذه الورقات بعجالة، لأنّ الحديث عن التاريخ العسكري لحاضرة بجاية في العصر الإسلامي يحتاج إلى سلسلة من البحوث التاريخية والأثرية المُعمّقة، ولكن حسبنا هنا أن نفتح للقارئ هذا الباب، ليتوسع المتخصص بحثاً، ويستفيد غير المتخصص ثقافةً.

إنّ المتفحص للوثائق التاريخية المتوفرة لا يجد لمدينة بجاية قبل الفتح الإسلامي عطاء حضاري مشهود أو ثقل عسكري محسوب رغم موقعها المميز ونشاطها التجاري المتواصل، حيث لم تعرف المنطقة استقرار كفيل ببناء حضاري، لتعاقب الغزاة عليها، وتوالي مقاومات وثورات سكان المنطقة[1]، وحتى بعد وفود طلائع الفتح الإسلامي منذ سنة 89هـ/ 707م لا يجد الباحث مادة علمية عن تاريخ حضاري أو إسهام عسكري كبير للمدينة خلال القرون الثلاثة الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي، ولعل ذلك يعود إلى « **افتقارها لدور حضاري وعسكري يُذكر آنذاك**[2]»، وإنما بدأ التألق الحضاري لبجاية ودورها العسكري مع قيام الدولة الحمادية خلال القرن الرابع الهجري، فلم يكن لبجاية شأن هام في تاريخ البربر إلا في عهد بني حماد.

فقد نقل السلطان الحمادي المنصور بن الناصر بن علناس (481 - 498هـ/ 1088 - 1104م) عاصمة الدولة الحمادية من القلعة إلى بجاية باعتبار موقعها الجبلي الحصين، وإطلالتها على البحر مما يُتيح فرصة بناء قوة عسكرية وبحرية ودار لصناعة السفن والأسلحة.

إنّ الرؤية العسكرية الاستراتيجية في هذا الاختيار كانت حاضرة لدى السلطة الحمادية وأميرها الناصر بن علناس بن حماد (454 - 481هـ/1062 - 1088م)، فلم يكن الاختيار عفوياً ولا عشوائياً، لأنّ مدينة بجاية محمية طبيعياً بسلسلة جبلية من الشمال إلى الجنوب، ومجموع النصوص التاريخية والجغرافية تؤكد بأن موقع المدينة له من الخصائص الفريدة والعناصر التضاريسية المختلفة ما يشهد على حصانتها ومناعتها، حيث يصفها الحسن الوزان بأنها «**تكاد كلها مؤلفة من جبال شاهقة وعرة**[3]»، فجبالها المرتفعة ومنحدراتها الوعرة، جعلها موقع حصين وآمن من كل الأخطار التي يمكن أن تهددها، فالمارّ لا يستطيع يخطو خطوة دون النزول أو الصعود[4].

جَمع موقع بجاية بين الطابعين الجبلي والبحري، مما أهّـلها لأن تكون ملجأً آمناً وحصيناً ضدّ هجمات العرب الهلاليين، فموقعها أبعد ما يكون عن مسار تحركاتهم، وذلك بسبب الحواجز الجبلية التي تتمتـّع بها المدينة، فموقعها الجبلي البحري جعل الرحالة العبدري يصفها بأنّها « مبدأ الاتفاق والنهاية وهي مدينة حصينة منيعة شهيرة برية بحرية ... مقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليها إشراف الطليعة، متحصنةٌ بها منيعة[5] «، **وبالتالي فهي بعيدة عن الأخطار الخارجية التي يمكن أن تهددها، أمّا الجغرافي ياقوت الحموي فقد وصفها بأنها مدينة** » «، على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب ... بُنيت المدينة من لحف جبل شاهق ... تُركب منها السفن وتسافر إلى جميع الجهات[6] » «كما ذكرها الجغرافي الشريف الإدريسي بأنها» على البحر لكنها في جرف حجر، ولها من جهة الشمال جبل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يسمى ميسون وهو جبل سامي العلو صعب المرتقى[7]»، وإنَّ هذه التحصينات الطبيعيّة المذكورة في المصادر التاريخية والجغرافية من شأنها أن تضمن أمن واستقرار أي دولة في ذلك الزمن من كل الأخطار والتهديدات الخارجية، أو تحُدّ منها على الأقل.

ومما يُؤكد الرؤية العسكرية لدى الناصر بن علناس في اختيار موقع بجاية هو بناؤه لسور عظيم يُحيط بالمدينة، ورصيفٌ يمتدُّ إلى البحر، لأنّ تشييد مدينة بجاية أصلاً كان في جبل على مدارج فوق المنحدرات السفلية بجبل قورايا الذي يرتفع على سطح البحر بنحو ست مئة متر، وتكسوه الغابات الكثيفة من معظم الجهات، إضافة إلى ذلك فهو يُطل على خليج محمي من العواصف والرياح القوية، وذلك بفضل وجود كتل عالية من الصخور مما يجعل منها ميناء محمي يُمكن للسفن أن ترسو فيه بأمان[8] ، فالاختيار إذاً كان وفقاً لظروف اختصَّ بها الموقع المحصَّن طبيعيا، وهذا ما جعلها تنعم بالريادة والاستمرارية مدة أطول، لأنَّ موقعها الإستراتيجي يُحقق شروط تشييد المدينة الآمنة المحصّنة حسب الرؤية العسكرية السائدة في العصر الوسيط.

يُمكن اعتبار العصر الحمادي بداية التأريخ العسكري لحاضرة بجاية في العصر الإسلامي، ويبدو أن القوة العسكرية الحمادية لم تكن -أوّل أمرها - في مستوى الاستعدادات الحربية اللازمة لمواجهة الخطر النورماندي، حيث استولى النورمانديون على المدن الإفريقية الواحدة تلو الأخرى، بما فيها مدينة المهدية الحصينة عاصمة الدولة الزيرية سنة 543هـ / 1148م، بل كان الأسطول النورماندي قد استولى بقيادة «روجار» سنة 537هـ/ 1142م على مدينة «جيجل» القريبة من عاصمة الحماديين «القلعة» فدخلها عنوة وسفك دماء أهلها وسبى حريمها وأحرقها بالنار، وهي عمالة بني حماد من ولاّة بجاية[9]، ومع ذلك لم يصدر من الحماديين رد فعل قويّ خلدته المصادر التاريخية[10].

ويُمكننا أن نفسر هذا الإحجام العسكري من سلطة بجاية بانهماك السلطة الحمادية في البناء والتشييد والتعمير حينها، فلم نُسجل إلى غاية هذه الفترة ملحمة عسكرية حمادية مشهودة.

شهدت مدينة بجاية في منتصف القرن السادس الهجري بجاية حملات عسكرية من طرف الموحدين، في إطار مشروعهم الرامي إلى توحيد المغرب الإسلامي تحت سلطانهم، وقد اختلفت الروايات التاريخية المتعلقة بضمّ الموحدين لبجاية، فيذكر ابن خلدون أنّ الموحدين دخلوا بجاية بعد مجابهة عسكرية مع واليها يحي بن العزيز، فهزمه الموحدون وتنازل لهم الوالي طوعاً عن المدينة سنة 547هـ[11]، أما ابن عذارى فيذكر أن المدينة استسلمت للموحدين دون قتال حيث تمكّنوا من المدينة بعد فرار واليها يحي بن العزيز[12]، ورواية ابن عذارى تنطبق مع رواية ابن الأثير الذي ذكر أن يحي بن العزيز صاحب بجاية كان منشغلا بالصيد والملذات وترك عبئ الحكم لآل ابن حمدون، الذين انتدبوا ميمون بن حمدون للخروج بجيش بجاية لمنازلة جيوش الموحدين وصدّهم عن المدينة، لكن تفاجؤه بعدد وقوة الجيش الموحدي جعله يفتح أبواب المدينة للموحدين دون قتال بعد فرار صاحبها يحي بن العزيز إلى مدينة قسنطينة والاحتماء بها[13].

ابن الأثير ينفرد برواية أخرى تحمل معنى المواجهة العسكرية، فيقول أنَّ صنهاجة اجتمعت بقيادة شخص يسمى «أبو قصبة» في أعداد كبيرة بعد الاستيلاء على بجاية، وانضمّ إليه الكثير من قبائل «كتامة» و«لوّاتة» وغيرهم لقتال جيوش الموحدين، فالتقى الجيشان في ملحمة عسكرية انتهت بانهزام أبو قصبة أمام الموحدين[14].

واستناداً لرواية ابن الأثير هذه فإنّنا نستبعد تسليم المدينة بدون مناوشات عسكرية على الإطلاق كما ذكر غيره، ومهما يكن فإن الباحث لمحُ في المسار التاريخي لحركة الجيش الموحدي المتوجه إلى بجاية استعدادات عسكرية مُحكمة وإعداد حربي مميّز، يُنبئ عن سُمعة عسكرية لبجاية كانت تُرهب الطامعين فيها، فقد أحاط الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي حملته بالكتمان والسرية التامة، إذ انطلقت حملته العسكرية من مدينة سبتة على أساس أنها ستمضي إلى مراكش تمويهاً وتضليلاً، ثمَّ غيَّرت الحملة وجهتها نحو بجاية، حتى أنَّ عبد المؤمن بن علي قتل أحد عناصر جيشه تلفظ بشي عن حقيقة الحملة، كما استخدم الخليفة في حملته عنصر المفاجأة بالإضافة إلى المبالغة في كتم سر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وِجهة الحملة، لأنّه كان يُدرك الإستعدادت العسكرية لبجاية فضلاً عن حصانتها الطبيعية[15].

بعد استكمال عملية ضمّ مدينة بجاية من طرف الموحدين تحوّلت بجاية إلى قاعدة حربيّة للخليفة الموحدي عبد المؤمن ومقراً له ومنطلقاً لأعماله العسكرية ضدّ عرب إفريقية، بينما لم تكن بجاية نفسها مسرحاً لمواجهات حربية، وغادرها الخليفة الموحدي سنة 547 هـ بعد شهرين من الإقامة فيها، وقد تمكن من ضم فيها جميع أحواز بجاية[16].

ولعل المشهد العسكري الأكبر الذي عرفته حاضرة بجاية خلال العصر الموحدي، كان أواخر القرن السادس الهجري، حيث ظهرت المطامع الزعامية لأسرة بني غانية، ممثلة في رجل حربٍ وسياسة هو علي بن إسحاق بن غانية، كان أبوه إسحاق والياً للمرابطين على جزيرة ميورقة في الأندلس، ولمّا أطاح الموحدون بالدولة المرابطية، بعثوا كتبهم إلى إسحاق بن غانية في عام 578هـ/1183م يدعونه إلى الدخول في طاعتهم، فتماطل في ذلك إلى أن أدركته الوفاة عام 579هـ/1184م[17].

خلفه إبنه علي بن إسحاق بن غانية الذي استغلّ هزيمة الجيش الموحدي أمام مدينة شنترين بالأندلس ومقتل الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عام 580هـ/1184م، ومبايعة الأمير الجديد أبي يوسف يعقوب بن يوسف الملقب بـالمنصور الموحدي (580 - 595 هـ)، وانشقاق بني عبد المؤمن على أنفسهم وامتناع بعضهم عن البيعة للخليفة الجديد، فشجّعت هذه الظروف الأمير علي بن إسحاق بن غانية على التمرد والخروج عن سلطة الدولة الموحدية، بل وأكثر من ذلك شحن قواته البحرية وقرّر مهاجمة مدينة بجاية قاعدة الحكم في المغرب الأوسط[18].

إنّ اختيار علي بن إسحاق بن غانية مدينة بجاية لبناء سلطانه بالمغرب هو نابع من معرفتهِ السابقة بالمدينة وأهلها، وذلك للعلاقات والمبادلات التي كانت بينهم، فكثيرا ما كان بنو غانية يأتون بجاية لبيع سبايا حروبهم[19]، وممّا شجع علي بن إسحاق على الحلول ببجاية ومنازعتها الموحدين عسكرياً تعويله على الظفر بدعم ومساندة خصوم الموحدين في المنطقة وهم طوائف العرب من قبائل بني هلال ورياح، الذين قضى الموحدون على ثورتهم عام 576هـ/1181م، والتعويل كذلك على دعم بني حماد أصحاب بجاية الذين قضى الموحدون على ملكهم أيضاً[20].

سار علي بن إسحاق بأسطول عسكري قويّ أسند قيادته إلى رشيد الرومي، ونزل بجاية فسيطر عليها عام 580هـ /1185م، إلا أن والي بجاية الموحدي أبو الربيع سليمان فشل في مواجهة الحملة العسكرية، وانهزم أمامها ثم انسحب إلى تلمسان وتحصّن بها[21].

لم يكتفِ علي بن إسحاق بالسيطرة على بجاية بل قصد قلعة بني حمَّاد ونواحيها فملكها، ثم سار بقواته وأحكم سيطرته على مليانة ومازونة وأشير، وقطع علي بن إسحاق الخطبة للموحدين في البلاد التي استولى عليها، وحوَّلها للخليفة العباسي الناصر لدين الله (575 - 622هـ) أمير المؤمنين يومها، وتلقّب علي بن غانية بلقب أمير المسلمين على عادة المرابطين الذين تلقبوا بهذا اللقب أيام حكمهم للمغرب والأندلس وكان ولاؤهم للخلافة العباسية في بغداد[22]، بينما الموحدون أقاموا سلطانهم على أحقيتهم في الخلافة وعدم الاعتراف بشرعية الخلافة العباسية.

علم الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (580 - 595هـ) بخروج بجاية عن سلطانه فجهَّز جيشًا بريًا قويًا وعهد قيادته إلى ابن عمه يعقوب بن أبي حفص، وجهز الأسطول البحري الذي خرج من سبتة بقيادة أحمد الصقلي في حملة عسكرية برية وبحرية منظمة ومنسقة[23].

استعصت بجاية على جيوش الموحدين كثيرًا قبل استرجاعها وشهدت معارك ومواجهات عسكرية طاحنة، فقد استطاعت الجيوش الموحدية المشتركة استرجاع المدن التي استولى عليها ابن غانية تباعًا، ودمّرت الأسطول البحري وأسَرت قائده رشيد الرومي وذلك في عام 581هـ/ 118م، فهرب علي بن إسحاق وأخوه يحيى وأعوانهما إلى أطراف الصحراء[24]، وقد أُعتبرت ثورة بني غانية العسكرية في بجاية من أخطر الأزمات التي أنهكت الدولة الموحدية وتسبّبت في ضعفها وزوالها.

بعد زوال الخلافة الموحدية انشطر المغرب الإسلامي إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثلاث إمارات تتنازعه، وتدّعي كل إمارة أحقيتها في تركِة الدولة الموحدية وأحقّيتها في الخلافة والحكم على كامل المغرب الإسلامي، وهي الدولة المرينية في المغرب الأقصى وحاضرتها مراكش، والدولة الزيانية في المغرب الأوسط وحاضرتها تلمسان، والدولة الحفصية في المغرب الأدنى وحاضرتها تونس ثم قسنطينة وبجاية، وأصبحت بذلك بجاية ولاية تابعة للحفصين.

تحمّلت حاضرة بجاية الحفصية عِبئاً كبيراً في هذا الصراع الحفصي-الزياني-المريني باعتبارها الواجهة الغربية المحاذية للزيانيين، وأوّل واجهة إستهدفها زحف المرينيين على الدولة الحفصية.

كان للمرينيين طموح في السيطرة على كامل المغرب الإسلامي، لذالك عملوا على التدخل في شؤون الدولة الحفصية وأصبحت العلاقة السياسية بين الدولتين تتصاعد نحوَ التوتر لتتطوّر إلى عداء، ولا نستبعد إسهام الزيانيين في تغذية هذا العداء من خلال دعم حركات المعارضة الحفصية ضد المرينيين، من أجل إضعاف الطرفين عسكرياً، وهي سياسة حربية كانت منتهجة في ذلك الزمن، كما أنّه في المقابل لم يعد سلاطين بني مرين ينظرون إلى الحفصيين على أنّهم أصهار أو طرف مؤيّد لهم في صراعهم مع الزيانيين، بل نظروا إلى إفريقية كجزء من دولتهم التي ورثوها عن أسلافهم الموحدين والواجب عليهم استرجاعها إلى ملكهم ، وهذا ما سار عليه السلطان المريني أبو عنان (759-749هـ\1358-1348م)، حيث كثّف من حملاته الحربية للسيطرة على حواضر إفريقية، خاصة بجاية وقسنطينة وتونس، وأهم هذه الحملات كانت سنة 758هـ\1356م، المتجهة إلى حصار قسنطينة وبجاية ومن بعدها الزحف على باقي إفريقية.

كانت هذه الحملة تسير في خطين بري وبحري، وتمَّ تجهيزها بأسلحة ثقيلة وخفيفة أهمها الأنفاط الحارقة، وزُوِّدت بمُعِدَّات الحصار، كما شاركت فيها عناصر قتالية متنوعة تُجيد العديد من فنون القتال، وأُستخدمت فيها الكثير من القطع الحربية مُختلفة المهام، وفرضت الحملة الحصار على قسنطينة فسقطت في أيديهم، وأسِرَ السلطان الحفصي أبي العباس أحمد الموجود فيها، وتمّ نفيه إلى مدينة سبته، ثم لحقِت بها بجاية، وفي نفس السنة تمَّ السيطرة على تونس بعد حصارها بالقطع البحرية واقتحامها[25].

لم يهنأ المرينيون بالاستقرار في بجاية فقد ظهرت العديد من الثورات الحفصية، مثل الثورة المسلحة التي تزعمها «الحاجب فارح» ببجاية وكان من موالى الحفصيين، وتمثلت أهدافها في عزل «عمر بن علي» عامل المرينيين على بجاية، وإسناد حكمها إلى صاحب قسنطينة «أبي زيان» ابن السلطان الحفصي «أبي بكر»، وكان ردّ المرينيين على الثورة أن قاموا بإرسال جيش إلى بجاية فنجح في إخماد هذه الثورة[26].

ظهرت بقسنطينة حركة أخرى تؤيد ثورة بجاية قامت بتنصيب الأمير تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المريني (من معارضي أبي عنان) حاكماً على قسنطينة[27]، وهذا الأسلوب الحربي اتبعه الحفصيون لتفريق كلمة بني مرين وكسب جبهات مؤيِّدة لهم داخل الدولة المرينية[28]، لتبقى بجاية تتحمّل الصدمات العسكرية بين الحفصيين والمرينيين ردحاً من الزمن في سلسلة حروب ومواجهات عسكرية خلّدتها مصادر التاريخ.

لم تسلمْ حاضرة بجاية أيضا من الضغط العسكري الزياني ممثلا في الحصار العسكري أحياناً والمواجهة الحربية أحياناً أخرى، فالتنافس على زعامة المغرب الإسلامي والرغبة في التوسع أدّى إلى ظهور علاقة سياسية متوترة ألقت بظلالها العدائية والحربية بين الدولتين في وقت مبكر، وهو ما جعل المواجهة العسكرية قدراً محتوما، فقد أنهى الزيانيون تبعيتهم للحفصيين في عهد أبي حمو موسى الثاني (707هـ / 718هـ)، وسعى الزيانيون في عهد أبي تاشفين الزياني إلى بسط نفوذهم على الأجزاء الغربية للدولة الحفصية حتى تكتمل سيطرتهم على المغرب الأوسط، خاصة وأن أعينهم كانت على مدن دلس والجزائر وبجاية.

شهدت فترة حكم أبي تاشفين الزياني أعمالا عسكرية مكثفة استهدفت بجاية، فقد أطلّ أبو تاشفين على بجاية سنة 719هـ / 1319م وبدا له من إحكام حصنها وكثرة مقاتليها ما جعله يراجع حساباته[29]، فأكثر من شن الحملات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العسكرية على بجاية، وتغذية المناوئين للسلطة الحفصية حتى تنشغل بحربهم فيستغل الأمر وينقضّ على بجاية الحصينة.

إستطاع الزيانيون التقدّم نحو بجاية في أكثر من مرة وضربوا عليها الحصار، ولمّا اشتدّت وطأته على المدينة أقدمَ واليها أبي العباس الحفصي على حيلة سياسية عسكرية طالما أُستعملت في تلك العهود ـ وكثيرا ما حالفها النجاح حيثُ عهِد أبو العباس الحفصي إلى أحد الأمراء الزيانيين المتمردين الطامعين في السلطة وهو أبو زيان بن عثمان بن عبد الرحمن، ونادى به ملِكاً على الزيانيين وكان قد خرج من تلمسان الزيانية متمردا على بني عمومته، والتجأ إلى تونس فولاّه أبو عبد الله الحفصي على «**دلس**» ليكون درعًا يقيه أطماع الزيانيين[30].

إن أخطر حصار زياني لمدينة بجاية هو حصار «حمزة بن عمر الزياني» الذي عسكر في وادي بجاية واختطّ حصن تيمزدكت يحتمي به على حافة الطريق الذي يمرُّ من الغرب إلى الشرق بالقرب من بجاية، تاركًا بجاية في جهة البحر، إذ شيّدهُ في أربعين يوماً فقط، وكان يَسع لأكثر من ثلاثة آلاف جندي، وأطلق عليه اسم تيمزدكت باسم حصن قديم للزيانيين[31]، وأخذ حمزة بن عمر الزياني «بمخنق البلد»[32]، أي أنَّه أخذ الرهائن من أبناء القبائل المجاورة ضمانًا لولائها وعدم تمرُّدها وأجبرها على دفع الضرائب، وكان ذلك أحد الأساليب الحربية في العصر الوسيط، كما حرِص على قطع الاتصالات مع بجاية، فأحدث ذلك مجاعة في المدينة، فجاءها المدد من عمالات قسنطينة وبونة وهوارة سنة 727 هـ[33].

ابتنى الزيانيون قلعة جديدة تعرف بـ «الياقوتة» عند الضفة اليمنى لنهر الصومام قبالة بجاية سنة 729هـ / 1329م، وعلى الضفة اليسرى لوادي الصومام ابتنوا أيضا حصنا يسمى «القصر» لتشديد الحصار على بجاية، وبهذا يكون الزيانيون قد ركزوا في مساعيهم الحربية على إقامة المنشآت العسكرية قريبا من بجاية لاستخدامها في المضايقة والحصار بهدف الاستيلاء عليها، بالإضافة إلى استراتيجية أخرى غير مباشرة وهي إمداد الثائرين على الدولة الحفصية ودعمهم لإشغال السلطة المركزية في تونس بتلك الثورات فتنصرف عن دعمها العسكري الكبير والدائم لمدينة بجاية للانفراد بها[34]، واستمرّ الصراع سِجالاً بين الدولتين تتخلله فترات سلام مؤقتة ومتقطعة ، ولم ينته ذلك الصراع إلا بنهاية الدولتين وسيطرة العثمانيين على المغربين الأدنى والأوسط خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي.

بعد هذا الاستعراض التاريخي السريع لمحطات حربيّة من تاريخ حاضرة بجاية في العصر الإسلامي، نُعرّج سريعا لاستطلاع بعض المعالم العسكرية الأثرية التي تعود إلى حاضرة بجاية خلال الفترة الإسلامية والتي لا يزال بعضها ماثلا ليومنا هذا.

من أهمّ تلك المعالم الأثرية الحربية حصن قصبة بجاية وهو عبارة عن حي من أحياء المدينة يُحيط به سور يضمن له الحماية والحصانة، تقع به دار الصناعة الحمادية، تحوّل بمجيء الموحدين إلى قصبة، ومقراً لحكمهم، ثم أصبحت فيما بعد مقراً للدولة الحفصية حيث كان يتمُّ فيها تقليد وتنصيب الأمراء وتتويجهم بوشائح الحكم فيها[35].

تمتاز قصبة بجاية بحصانة عسكرية، فهي تُـشرف على واجهة برية مؤمَّنة، وواجهة بحرية محمية عن طريق حصن البحر أو ما يُعرف ببرج سيدي عبد القادر، كما أنها محمية أيضا عن طريق أبراج عالية منتشرة عبر السور المُحيط بها[36] .

ومن المنشآت العسكرية في بجاية حصن سيدي عبد القادر الذي يُعرف أيضًا باسم «حصن البحر»، يعود تاريخه إلى العهد الحمادي والحفصي، وأعيد بناؤه من طرف الإسبان، حيث كان برجا للمراقبة آنذاك، ويقع في الحدود الجنوبية الشرقية للمدينة، ويسمح له موقعه الجغرافي بمراقبة الساحل المشرف على شاطئ سيدي يحي، والطرق المؤدية إلى قصبة بجاية[37].

ومن المعالم الأثرية العسكرية في حاضرة بجاية قلعة بني عباس، التي تقع ضمن سلسلة جبال البيبان على هضبة ارتفاعها 1050م على مستوى سطح البحر، وتحدّها من جهاتها الثلاث أودية عميقة، يتراوح عمقها مابين 500 و 600م، ويصلها بالجهة الرابعة شريط ضيق تحده مرتفعات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شديدة الانحدار[38].

أما حصن قلعة تمزدكت فهو عبارة عن حصن عسكري زياني يبعد حوالي 25 كلم عن بجاية، على ضفة نهر الصومام، بُني من طرف السلطان أبو تاشفين الأول الزياني ابن السلطان ابي حمو موسى الأول الزياني عند حصاره لبجاية سنة 720هـ / 1320م، يَسَعُ الحصن ثلاثة آلاف ومئتي فارس[39]، ولأنه من مُنجزات الزيانيين فقد تطابقت أسواره مع أسوار مدينة تلمسان وحصن قلعة المنصورة، وكان يتقدّمُ سور الحصن سور آخر أمامي مخصص لكسر الهجمات كخط دفاع مُتقدّم، ويبدو أن الحصن مؤقت أقامه الزيانيون خصيصا للاستيلاء على بجاية، وقد أنجز في أربعين يوما فقط، وقد اندثرت أكثر معالم هذا الحصن، ولم تبق إلا الأسوار العالية وبعض الأبراج[40].

من أهم التحصينات العسكرية التي لم تكد تخلو منها مدينة في العصر الوسيط هي الأبواب أو بوابات المدن، وهي منشآت كانت تجمع بين الوظيفتين العسكرية والمدنيّـة، وأحصى أحد الباحثين الأثريين المتخصصين سبعة أبواب عُرفت بها حاضرة بجاية هي: بوابة البحر التي تُعتبر أقوى وأهم تلك البوابات، صَمدت هذه البوابة في وجه الحروب وعوامل الزمن ولم تنل منها، وكانت السفن تمر تحت قبوها للدخول إلى المدينة. ومن تلك الأبواب أيضاً بوابة أمسيون التي تقع في السور الشرقي للمدينة، وبوابة المرسى والتي تُعرف ببوابة السادات، تقع في الطريق المؤدي من برج سيدي عبد القادر إلى ميناء سيدي يحي، وبوابة البنود التي تقع في الجهة الشمالية الغربية من المدينة، وكانت البوابة إحدى المداخل الرئيسيّة لمدينة بجاية، ومنها بوابة اللوز التي تقع في الجهة الغربية من المدينة على المرتفع الذي يُعرف بجبل خليفة، وهي البوابة التي اقتحمها علي بن إسحاق بن غانية – الذي سبق ذكره -عندما استولى على قصبة بجاية، و من تلك الأبواب أيضاً بوابة المرقوم والتي تُعرف ببوابة البَـرّ، وتقع البوابة فوق قبة سيدي محمد أمقران، مع المحور المؤدي إلى برج موسى، وآخرها بوابة دار الصناعة، وهناك أبواب أخرى ورد اسمها في المصادر التاريخية، لكن تعذّر على الباحثين تحديدها بفعل نقص الإشارات والقرائن[41].

وقبل أن نختم الحديث عن المنشآت الدفاعية التحصينية وجب ذكر سور بجاية، فقد كانت الأسوار ضرورة حربية لكل المدن في التاريخ الوسيط لعلوّها ومتانتها، فتتحصّن بها من الهجمات الخارجية من جهة، كما تساعدها على إحكام السيطرة على المدينة داخليا من جهةٍ أخرى، ويعود بناء سور بجاية إلى العهد الحمادي عندما أصبحت المدينة عاصمة ثانية للدولة، وهو في الحقيقة تجديدٌ للسور الروماني القديم، فقد استقدم الناصر آلاف العمال الذين أتمّوا بناءه في بضعة أشهر[42]، ويمكن مشاهدة آثاره إلى اليوم، ويمتدّ السور على مسافة 5400م ويختلف ارتفاعه من مكان لآخر، ويتراوح سمكه بين 90 سم إلى 2م وقدَّر الباحثون ارتفاعه بين 4 و 6 أمتار، وتعلو السور شرفات وأبراج تبعد عن بعضها حوالي 25 متر، وكانت هذه الأبراج مزوّدة بوسائل اتصال كالمرايا العاكسة والتي يمكن من خلالها الإبلاغ الفوري بقدوم الخطر على كل أطراف المدينة، أما في الليل فالإشارات كانت تتمُّ بواسطة إشعال النيران بطريقة متقنة ومتفق عليها، وهي من الطرق الإعلامية الدفاعية السائدة كثيراً في العصر الإسلامي، وعلى هذا الأساس أُطلق على الأبراج مصطلح المنارات وذلك للوظيفة المنوطة بها، كما كانت الأسوار تحتوي على فتحات موزعة على جهات تُـستعمل للمراقبة[43].

هذه محطات سريعة من التاريخ العسكري لحاضرة بجاية في التاريخ الإسلامي، وهو تاريخ طويل لا تستوفيه ورقات مقال أو صفحات كتاب، وإنما حاولنا فقط استعراض واستقراء صور من الذهنيات والرؤى والتدابير العسكرية في حاضرة بجاية خلال العصر الوسيط، بدءً من التخطيط في البناء والتموقع، ثمّ السياسة والتدبير في التصدي للتحديات العسكرية الخارجيّة، وانتهاءً بالتحصينات والاستحكامات الوقائية والدفاعية التي من شأنها أن تضمن للمدينة أمنها واستقرارها، فلا يُمكن أن ينطلق بناء حضاري إلا باستقرار أمني، وهو ما يلمحه القارئ من خلال استقراء التطور الحضاري والمسار العسكري لحاضرة بجاية في التاريخ الإسلامي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المراجع والمصادر:

1- جان ليون، قصة الحضارة في إفريقيا، جغرافية و تاريخ تلمسان و بجاية و تونس و نوميديا و الشمال الإفريقي، ترجمة: نور الدين قورضو، د.ت.ط، دار الكتاب الحديث، 2011، ص: 423.

2- محمد شريف سيدي موسى، «قراءة في الدور السياسي لبجاية في العصر الوسيط»، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة البليدة 02، العدد 17، السنة: 2017، ص: 04

3- الحسن الوزان (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، الطبعة02 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م، ج 02، ص: 50.

4- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ترجمة: سعد زغلول، د.ت.ط، دار الشؤون الثقافية، العراق، د.س، ص: 129 .

5- محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، د.ت.ط، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007، ص: 51.

6- ياقوت الحموي، معجم البلدان ، بيروت ـ لبنان ،دار إحياء التراث العربي ،د.ت.ط، ص: 61 .

7- الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط 1،عالم الكتب ،بيروت ،1989 م،ص: 118.

8- هايزيس فون مالتسان، بجاية، ترجمة: أبو العيد دودو، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر، العدد: 19، 1974م، ص: 41.

9- ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، 1967م، ص: 93.

10- محمد بن عميرة ولطيفة بشاري بن عميرة، تاريخ بجاية في ظل مختلف الأنظمة السياسية من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين، دار الفاروق للنشر، ط01، الجزائر، 2015، ص: 95.

11- عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، دار الكتاب اللبناني، 1959م، ج: 06، ص: 363.

12- ابن عذارى، البيان، قسم الموحدين، ص: 46.

13- Ibn el-athir : Annales du Meghreb et de l'Espagne, traduites par E. Fagnan dans Revue african, No 237 et 240, anne' 1900. P.P 91 – 92 .

14- - Ibid,P 111.

15- أبو بكر البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق، عبد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م، ص: 133. وبن عميرة، المرجع السابق، ص: 102 و 103.

16- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 126.

17- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق خليل عمران المنصور دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص: 191. واعظ نويوة، أثر ثورة بني غانية على الدولة الموحدية، رسالة مجستير، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2008، ص: 9، 10، 11 .

18- ابن عذارى، المصدر السابق، ص: 146. وعلي قنبر إلياس، سرة بني غانية ودورهم السياسي والعسكري في التصدي لدولة الموحدين في المغرب والأندلس، مجلة التربية والعلم – المجلد 17، العدد 01، سنة 2010م، ص: 93 .

19- أبي العباس احمد بن احمد الغبريني عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المئ السابعة في بجاية تحقيق رابح بونار، الطبعة الثانية. الشركة الوطنية لنشر والتوزيع 1975 . ص: 76.

20- علي قنبر، المرجع السابق، ص: 93 – 34.

21- االبن خلدون المصدر السابق، ج: 6 ، ص: 217.

22- انفسه ، ص: 192.

23- ابن عذارى، المصدر السابق، ص: 148.

24- المراكشي، المصدر السابق، ص: 300.

25- ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد د. محمد بن شقرون ، ط1 ، ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 224 – 225. وسالم غومة، العلاقة السياسية وآثرها الحربي بين الدولة المرينية ودولتي الزيانيين والحفصيين، -57 المجلة الجامعة – العدد الثامن عشر- المجلد الثاني- مايو 2016م، ص: 49.

26- سالم غومة، المرجع السابق، ص: .

27- بن خلدون، المصدر السابق، ج7 ،ص385-384 387.

28- سالم غومة، المرجع السابق، ص: 49.

29 ابن خلدون، نفسه، ج 06، ص: 756 – 757 .

30- ابن خلدون، نفسه، ج 06، ص: 552.

31- ابن خلدون، نفسه، ج 06، ص: 768.

32- نفسه.

33- نفسه ص: 769؛ وانظر كذلك بن عميرة، المرجع السابق، ص: 241 و242.

34- بن عميرة، نفسه، ص: 243.

35- عبد الكريم عزوق، «التحصينات الدّفاعية الإسلامية ببجاية، مجلة دراسات وأبحاث»، جامعة الجلفة، العدد 12، ص: 78.

36- نفسه، ص: 78.

37- عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 79.

38- بودرواز عبد الحميد، لتحصينات الدفاعية بقلعة بني عباس ببجاية ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين ، مجلة آثار، تصدر عن معهد الآثار بجامعة الجزائر 02، العدد 11، ص: 243.

39- ابن خلدون، المصدر السابق، ج 06، ص: 768.

40- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط04، دار الثقافة، بيروت، 1980م، ج02، ص: 161. ورشيد بورويبة، أسوار المدن الإسلامية في العصر الوسيط»، ترجمة عريب مختار، مجلة الجامعة، العدد 18، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص: 41 .

41- عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 86 و 87.

42- بورويبة، أسوار المدن، ص: 48.

43- عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 90 و 91.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com